الهوية من منظور فلسفة الأديان: دراسة وتوثيق:

بقلم: علي أبو الخير*

الإنسان هو محور اهتمام القرآن الكريم، وعليه تدور آياته الكريمة، لكن اهتمام القرآن بالإنسان كهدف قرآني لا يتطابق مع الفكر البشري الذي يسعى إلى الارتقاء بالإنسان لإسعاده مادياً ومعنوياً وحتى روحياً انطلاقاً من معطيات دنيوية بعيداً عن الدين والوحي..

فما هي هوية الإنسان بحسب فلسفة الأديان؟ وكيف يمكن المقارنة بين الفهم البشري لهذه الهوية والفهم الديني الوحياني لها؟

وما هي علاقة مفهوم الاستخلاف في تشكيل محددات ومكونات هذه الهوية؟

* باحث في الفكر الإسلامي من مصر.

نطرح مسألة الهوية (كإحدى مكونات شخصية أي شعب) إما استناداً إلى مقياس إقليمي قومي، أو أممي ديني. وهذا الطرح المعاصر يصبغ هوية أي شعب بتاريخ هذا الشعب أو ذاك، محددين هذا التاريخ بعناصر الخصوصية والتميز والأصالة، وكل هذه العوامل تختزن عند المفكرين المعاصرين فى الذات الجمعية بعد إعادة بعث مكونات حضارتها التي قد تكون غارقه فى القدم. الهوية القوميه تستند إلى التاريخ لتحدد تميزها وتفردها وأصالتها، ولكن دوماً ما ترتبط الهوية القوميه بالافتخار بالجنس القومي، فاذا ما أصبحت هذه الدوله قوية عسكرياً فإنها تفتح لنفسها مجالاً حيوياً من الأفكار والأرض، فتحاول إثبات تميزها فتنشر فكرها أو تطلق لجيوشها المجال فى توسعة رقعة أرضها تمهيداً لإثبات نظرية التفوق القومي العرقي، فتندلع الحروب كما حدث في الحربين العالميتين الكبيرتين، كما أن إطلاق الهوية الدينية من جانب القوى المهيمنة على اعتبار إقليمي أو أممي، فإنها تطلق لنفسها العنان لفرض دينها وإلغاء الأديان الأخرى، فتشتعل الحروب، كالحروب الصليبية التى انطلقت بعد أن أشعل البابا أوربان الثاني في الدول الأوروبية عام ١٠٩٥ الحرب ضد الشرق المسلم بصيحة تحدد هوية المقاتلين المنضمين الذين ذهبوا وقود الحرب التي دامت مائتي عام، وحدد البابا رؤيته لهذه الحرب فى مقولته: "الرب يريد هذه الحرب".

لكن الإسلام والإسلام وحده هو الذي حدد وصاغ ذات الإنسان وهويته على مفهوم إنساني، يمكن إرجاعها الى الفطرة التي يولد الإنسان عليها، والقرآن الكريم صاغ هوية ذلك الإنسان عندما مزج بين الممكن والمثال، بين الطموح البشري والضمير الإنساني، هذا المزج القرآني هو الذي كيّف حياة الإنسان المؤمن والكافر عندما منح الله جل شأنه حرية الاختيار للإنسان المكلف بالخلافة على الأرض، هذه الحرية الاختيارية هي هوية الإنسان العالمية كما جاءت في القرآن الكريم. هوية الإنسان إذاً في القرآن هوية مثالية، المثالية فيها قد لا ترتبط إلا بالمؤمنين الصالحين من البشر، ولكنها عند غير المؤمنين فطرة فطر الله الإنسان عليها ترفض الظلم والاستعلاء والاستبداد والقهر وكبت الآراء، ومن خلال هذه الفطرة تأتي آيات القرآن الكريم لكي تحدد نوعين من الهوية هوية إنسانية عالمية، وهوية إيمانية خصوصية. يأتي هذا البحث في كيفية صياغة الهوية من منظور قرآني، ويركز على العناصر التالية:

أولاً: عوامل بناء الهوية فى القرآن الكريم.

ثانياً: الهوية في المنظور التوراتي.

ثالثاً: الهوية في المنظور الإنجيلي.

رابعاً: الهوية في القرآن الكريم.

خامساً: هوية الأمة المؤمنة كما جاء في القرآن الكريم.

١- الهوية وعوامل بنائها في القرآن الكريم:

الإنسان هو محور اهتمام القرآن الكريم، وعليه تدور آياته الكريمة، ولكن الاهتمام بالإنسان كهدف قرآني لايتطابق مع الفكر البشري الذى يسعى إلى الارتقاء بالإنسان لإسعاده مادياً ومعنوياً أو حتى روحياً. هوية الإنسان في القرآن هو كونه خليفة، حيث جاءت بالدعوة إلى رب العالمين وإلى الحق الذي يتساوى فيه أبناء آدم وحواء، وجاءت بذلك لأن إنساناً واحداً خلق الله فيه مِنْ قوة الروح ما يكافىء العصبيات والضلالات جميعاً ويتغلب عليها ويجريها فى غير مجراها،[١] وهوية الإنسان كخليفة لا تعني آدم عليه السلام وحده فما كان آدم بعينه ليفعل ذلك، ولكن الحوار فى الآية الكريمة ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفه**﴾[٢]، كان يدور عن الجنس البشري أو الإنسان الذي قرر الله خلقه[٣] فالخلافة هى مسؤولية عامة لا يجوز لفرد أن يستأثر بها أو أن يحتكر اللقب، وإنما يضطلع بها البشر المؤمنون الذين يقبلون التكليف ويتطوعون بتنفيذ إرادة الله بهذا الاستخلاف. الهوية في القرآن هوية إنسانية عامة تحدد خصائص الإنسان بصفاته التي وضعها الله فيه يوم خلقه، بل قبل خلقه ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾،[٤] ومن أجل بناء شخصية انسانية متكاملة حرة ومتميزة وفريدة فقد تطلب الأمر عدة عوامل لبناء الهوية الإنسانية العامة:

أولاً :

عامل عقلي:

حيث خلق الله العقل للإنسان وذلك للتمييز بين الخطأ والصواب، ومن أجل العقل فقد تطلب حرية الاختيار والتي هى نتيجة للعقل وليست سبباً له، والقرآن الكريم حرص على إيقاظ العقل وإطلاق حرية إمعان النظر والفكر الضروري لحرية العقل والتفكير لعدم جبر الإنسان لمعرفة الله إلا بعد تمحيص عقله؛ لأن القرآن الكريم كان يخاطب أقواماً ينكرون، وأقواماً يشكرون وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل، ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة، وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذي نزل فيه وأبناء سائر العصور، ومن أمة العرب وسائر الأمم، فلزم فيه تمحيص القول بالربوبية عند كل خطاب، وقامت دعوته كلها على تحكيم العقل فى التفرقة بين عبادة وعبادة، بين الإله الأحد؛ وتلك الآلهة التي كانت تعبد يومئذ بغير

برهان.[٥]

حرص القرآن الكريم من البداية على جعل العقل وسيلة الإنسان لمعرفة الخالق وباقي المخلوقين على السواء، فكانت الوحدة تقوم على أساس قاعدة النظرة الإنسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى فى الإنسان، وهيأه لهذه الخلافة الإلهية في الأرض.[٦]

وقد كانت الظروف الإنسانية والحياتية فى البداية ملائمة لأن تأخذ هذه النظرة دورها في تحقيق الوحدة واستمرارها باعتبار بساطة الحياة الاجتماعية وعدم وجود التعقيد فى ظروفها.[٧]

فالعقل هو أول عوامل بناء الهوية الإنسانية؛ لأن الإنسان كما يصوره القرآن الكريم مخلوق مقدس خليفة لله فى أرضه وهذه هي مسؤوليته وعليها تتحدد هويته العالمية، وعندما أرسل الله في ما بعد الرسل للأقوام الذين اتبعوا أهواءهم وتنكبوا طريق الهدى فعبدوا أوثاناً وأشركوا مع الله آلهة أخرى، كان هؤلاء الرسل يتبعون طريق العقل أولاً لهداية أقوامهم، فالدين وسيلة لا غاية، [٨] وعندما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس...**﴾[٩] كان الأمر الإلهي تكريماً لبني الإنسان أجمع، اعتبر الإنسان المركز والمحور الذي خلق الله من أجله كل المخلوقات، ولأنه كذلك فقد كرمه الله جل علاه ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم فى البر والبحر.....**﴾[١٠]، ﴿**وصوركم فأحسن صوركم**﴾.[١١]

فالخطاب القرآني هو المتميز بانطلاقه من الحقيقة الكاملة، من الجوهر الثابت ليتعامل ويتفاعل بعد ذلك مع الفرع المتغير فى الزمان والمكان، أي مع تطور حياة الإنسان والمجتمع، من أجل ذلك تميز القرآن الكريم في التعبيرعن مصدر الحقيقة فى الإنسان،[١٢] وأولى هذه الحقائق ارتباط العقل في الإنسان بالوحي الصادر عن الله الذي خلق الإنسان وميزه بالعقل، ومجال العقل البحث في أسرار الكون والطبيعة، والعقل مناط التكليف وأساس المسؤولية، به يدرك الإنسان الأمور، وتعطيل القوة العقلية ينتج عنه الجهل من نور العلم الذي هو أساس الإيمان الحق والاعتقاد الصحيح والمعرفة اليقينية، وكتاب الله الكريم مليء بالأحكام والاستدلالات العقلية في ما يتعلق بالأمور الغيبية مثل: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾.[١٣]

﴿**ما اتخذ الله من ولد❖ وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق❖ ولعلا بعضهم على بعض**﴾.[١٤]

ومنها ما يتعلق بأمور لا يستطيع العقل القاصر إدراكها، ولكن العقل القاصر هذا

يدرك أن قـوة أعظم هي التي خلقت وأبدعت وصورت، وهذا لا يتنافى مع التصور العقلي الذي ميّز الانسان.

﴿أمن خلق السماوات والأرض﴾.[١٥]

﴿إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب﴾.[١٦]

﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾.[١٧]

﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾.[١٨]

وهي آيات تدل على أن عمليات التعقل والتفكير استندت على المشاهدة التي هي أقوى الأدلة على التفكير (العقلي)، ولمَ لا، والله سبحانه أمر الإنسان بطلب البرهان على كل حقيقة تعرض عليه، وقد أخرج القرآن أكثر من مرة أهل الملل المخالفة، واعتبر أن كل كلام لا يعتمد على برهان لا يكون علماً ولا يرمز إلى مرتبة العلم، بل هو فرض أو تخمين وهو في أحسن الأحوال ظن لا يصل إلى العلم؟ [١٩] والقرآن الكريم ينص على :

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.[٢٠]

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر❖ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾.[٢١]

ثانياً :

العامل الإرادي لبناء الهوية:

حبا الله الإنسان بالإرادة وهي تلك التي تشمل أوجه السلوك الإنساني وتنظم موقفه وعلاقته بغيره ومجتمعه على كافة مستويات هذا المجتمع بل علاقته بالوجود كله، بكائناته العاقلة وغير العاقلة؛ لأنه هو الخليفة المتصرف في ملكية الله سبحانه وتعالى بموجب استخلاف المالك له وفى حدود ما قرره المالك جل وعلا، لقد شاءت إرادة الله أن يختلف الناس وأن تتنوع الحضارات وتتمايز الأمم وتتعدد المعتقدات؛ لذلك فالقرآن الكريم لم يبشر أبداً بوحدة الجنس البشري فى عقيدة واحدة (ولو كانت عقيدة التوحيد). فالقرآن الكريم يقول: **﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا❖ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**،[٢٢] للتعارف المتنوع بين شعوب الأرض وقبائلها بكل أديانها ومذاهبها، والأكرم هو الأتقى عند الله وليس عند الإنسان، فإرادة الإنسان تقف عند التبليغ بالتي هي أحسن والإنسان المؤمن بالله هو الأكرم، ولكنه ليس الذي يقوم بفرض التوحيد على باقي الشعوب بحد السيف فـ **﴿لا إكراه فى الدين﴾**،[٢٣] إن الإنسان يتحمل مسؤولية اختياره بإرادته، فلا شك في أن وحدة الجنس البشري في

فكر واحد وانتفاء أي معارضة أو خلاف ينهي حرية الإرادة، ومن ثم تسقط المسؤولية.[٢٤]

لقد حدد الله للإنسان إرادته الحرة التي جاءت عبر المحاولات والخطأ فى المسيرة الإنسانية، ولكن الإنسان يتوجس من المخالفة، ويندفع غريزياً إلى إزالة التعدد إما بالابتلاع أو بالذوبان فيه،[٢٥] حاولت حضارات ابتلاع المخالفين أو تحويلهم إلى مذاهبها وأديانها من خلال التنكيل والتعذيب، وكل الحضارات التى قامت على فكر بشري بشّرت بوحدة الجنس البشري بإرادتها وتحت أعلامها وفى ظل فلسفتها التي اعتقدت أنها لخير البشرية كافة، وادعت أنها بتحقيق هذا الخير بالقوة المسلحة وإجبار الناس على الدخول فى نظامها أو في ملكوت الله، كل هذه الحضارات انتهت بقهر الكيانات المخالفة واستعمارها وإخضاع مصالحهم وتطورهم لمصالحها هي.

وما من حضارة استطاعت أن تدخل كل الناس فى نظامها لأن ذلك مخالف لإرادة الله، وإرادة الإنسان أيضاً التي ترفض القهر والكبت فضلاً عن فرض الرأي بالقوة ولو كان فيه خير البشرية، ولذلك جاءت الآيات القرآنية الكثيرة تؤكد حق الإرادة للإنسان والتي هي أحد عوامل بناء هويته.

﴿فمن شاء فليؤمن❖ ومن شاء فليكفر﴾[٢٦]

﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً❖ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[٢٧]

القرآن الكريم إذن أعطى الحصانة الإنسانية لإرادة البشر جماعات وأفراداً، هذه الحصانة الإنسانية تفرض على الجماعة الصالحة أو المؤمنين الصالحين حماية كل البشر من الطواغيت أياً كانت دياناتهم لجعل الإرادة الحرة وحدها هي التي تجذب غير المؤمن للانضمام للجماعة الصالحة، حتى لا تنتفي إرادة الإنسان وتتعرض المجتمعات للخطر عندما تتعرض لمحاولات الدول الاستعلائية في فرض إراداتها على مقدّرات دول أخرى، تحت الشعار القديم نفسه وهو هداية البشر وتوحيدهم فى مجتمع واحد أو الدخول فى دين واحد.

ثالثاً :

المنهج التربوي و الثقافي لبناء الهوية:

﴿وإذ قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما❖ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين...﴾.[٢٨]

لقد كانت التربية الإلهية لآدم عليه السلام أول معالم تحديد الهوية الإنسانية،

فقد نهى الله آدم عن الاقتراب من الشجرة، وهو نهي اختيار لا نهي إجبار، وإلا لكان إسقاطاً لحرية الاختيار، وقد اقترنت الدعوة القرآنية لكل البشر بالاقتداء بالرسل كمنهج تربوي ثقافي.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾،[٢٩] لقد كان تعليم الله لآدم هو بذرة الثقافة الإلهية للإنسان لكي يكون عالماً بالأشياء أسمائها وصفاتها، أسماء الإنسان والحيوان والنبات والجماد، علم كامل من الثقافة تميز بها الإنسان لكي يتمكن من عملية الاستخلاف التى خلقه الله لأجلها.

ولا يمكن للإنسان حسم قضايا الإيمان والكفر إلا بالثقافة التى تميزه عن باقي المخلوقات، الثقافة ومفرادتها هي التي حدّدت مسيرة الإنسان من زمن آدم حتى العصر الحديث، لقد علّم الله الإنسان الأسماء والعلوم وحدّد له طرق الاستفاذة من العلوم، ثم منحه نبذات يسيرة من كيفية التعامل مع المخلوقات من باب العلم:

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾[٣٠]

﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾[٣١]

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع...﴾[٣٢]

﴿الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾[٣٣]

﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر...﴾[٣٤]

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[٣٥]

﴿وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾[٣٦]

واقترنت الثقافة القرآنية بالتربية الإلهية، فالاقتداء بالرسل أهم وأبرز المعالم التربوية القرآنية التى تحدد للإنسان طريقه نحو الرفاه الإنساني الديني والدنيوي، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وحرص القرآن الكريم على مخاطبة المؤمنين عند توجيه الخطاب التربوي بـ:" **أيها الذين آمنوا**" تزكية لهم وتربية دينية تعتمد على العاطفة والتعقل.

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[٣٧]

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[٣٨]

﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾[٣٩]

وفي القصص القرآني أسلوب تربوي يعتمد الحجة والمنطق، يعطي العبرة

للمكذبين بالرسل وبدعوتهم إلى الإخلاص في توحيد الله وعبادته ليكون بحق الخليفة الذي يستحق شرف الخلافة في الأرض بعد أن سخّر له كل ما في الكون لخدمته.

الجماعة المؤمنة التي ستقوم بالتبليغ هى التي ستنفذ المنهج التربوي الذي يرفض التعصب الممقوت، ويرفض تقسيم الناس على أساس الطبقات الاجتماعية التي ينتمون إليها.

رابعاً :

النفحة الإيمانية لبناء الهوية:

لم يترك الله الإنسان لعقله فقط، بل منحه دفعة إيمانية قوية روحانية خالصة تعمر قلبه، حتى يتمكن من تقبل الصدمات الحياتية والروحانية التي تواجهه أثناء مسيرة حياته، وهي نعمة إلهية للإنسان. يقول الحق في كتابه الكريم: ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين**﴾(٤٠)، النفحة الإيمانية في القلب الذي يملك الحدس والوجدان والعواطف؛ فإذا كان العقل يفكّر في السموات والأرض والكون، ويصل بالتالي إلى نعمة الإيمان بخالق الكون، فإن الله يربط على قلبه هذا الإيمان فلا يعود للتشكك فى إيمانه، ولا يصبح العقل مصدر نقمة إن هو فكّر في الغيبيات الإلهية وفي ذات الله جل شأنه، فطالما وصل لاقتناع بأن خلق هذا الكون ليس عبثاً، تغمره النفحة بأنوارها القدسية فيثبت على الحق الذي هداه الله إليه، فيتفرّغ العقل لإعمار الكون واستغلال كل موارده لسعادة البشر على اختلاف مللهم ونحلهم.

والنفحة الإيمانية تفطر الإنسان على حب الخير ورفض الظلم ونجدة المظلوم وإيثار الغير على النفس ولو كان بها خصاصة، مناط التكليف العقل، ومناط الإيمان القلب وهما توأمان متلازمان ضروريان لحياة الإنسان واختياره، وهما أساس كل دين إلهي؛ فمنذ نوح وحتى محمد صلوات الله عليهم، والدين عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة وتصطبغ النفوس بعقائده، فهو سلطان الروح ومرشدها، فلم يترك الله الإنسان سدى بل أعطاه كل الملكات الفطرية والتعليمية لكي يصل بنفسه إلى الحق المبين.

٢- هوية الانسان فى التوراة:

حددت التوراة هوية الإنسان ببركة الرب التي منحها لإبراهيم عليه السلام، وتلك البركة التي يتبارك بها تميز بين الإنسان الصالح والإنسان غير الصالح ففي سفر

التكوين خطاب من الرب لإبراهيم: "ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض"،[٤١] هذه البركة خرجت من إبراهيم من نسله الإسحاقي والإسماعيلي على السواء، وانتشرت دعوته عبر ذريته من الأنبياء والأصفياء، فشملت معظم الجنس البشرى، والبركة التي ذكرتها التوراة تختص بعقيدة التوحيد التي انحرف عنها البشر حتى أغرقهم الله بالطوفان أثناء نبوة نوح عليه السلام، لذا كان وجود شعب كامل يدين بعقيدة التوحيد الإبراهيميه ضرورة لازمة لكي تنتشر دعوة إبراهيم عبر ذريته، وهذا ما يتفق وما جاء في القرآن الكريم: ﴿**إنى جاعلك للناس إماماً**﴾،[٤٢] ولا يعني الإمام للناس سوى تحديد هوية كل الناس، باعتبار الإنسان هو نفسه المخلوق المقدّس الذي كرّمه الله، إبراهيم الذي جعله الله أباً لجمهور من الأمم هو الذي منحه الله ذرية تعرف الله وتعبده وتوحده وعليها عبء نشر دعوة التوحيد تلك لتتحدد مسؤولية الدعاة من ذرية إبراهيم.

التوراة ليس فيها ذكر لاستخلاف الله للإنسان في الأرض، ولكن المؤكد أن التوراة قبل التحريف كانت تتضمن إشارة إلى هذا الاستخلاف ففي سفر التكوين: "أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم؛ لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون، وأتم عهدى بيني وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً"،[٤٣] هذا العهد هو استخلاف إبراهيم وذريته للأرض، وهو استخلاف للإنسان الصالح، الذي يستحق الاستخلاف, وليس المقصود بجعله أباً لجمهور من الأمم أن تخرج هذه الأمم من صلبه, بل أن يكون لهم إماماً يقتدون به فى سيرهم إلى الله تعالى، وأيضاً فإن الوعد له من الله تعالى أن يكون من نسله أنبياء وأئمة يدعون الناس لطاعة الله وعبادته،[٤٤] ويفهم ضمناً من استخلاف إبراهيم وذريته وتجلي دعوته بين أمم الأرض أن الاستخلاف أعطي للإنسان في أول عهده ولما نزع الإنسان إلى الشر والجهل جعل قضية الاستخلاف تختصر في إبراهيم ودعوته، التوراة إذاً حددت هوية الإنسان الذي يجب أن يحكم وخصائص هذا الحاكم المؤمن.

على أن التوراة، ونقصد بها العهد القديم ظلت تدافع عن الإنسان وتميزه عن سائر المخلوقات، فقد رتب العهد القديم نشأة الكون في ستة أدوار؛ كل دور منها سمي يوماً، ففي الأيام الثلاثة الأولى خلق النور ثم الماء، ثم فصل بين ماء أعلى وماء أسفل، فكانت السماء والأرض، وفي الأيام الثلاثة الأخرى ظهرت نباتات الأرض والكواكب في السماء، وبها ظهر الليل والنهار، ثم ظهرت زحافات الماء والطيور

وأخرجت الأرض أنفساً حية من الحشرات والبهائم، وأخيراً ظهر الإنسان.(٤٥)

وفى هذا الترتيب يبدو منطق جيد، خلقت الأشياء الدنيا الأساسية أولاً، ثم ظهر بعدها ما يحتاج إليها وتتوقف حياته عليها، فالعشب لا يوجد إلا بعد ظهور الأرض وبعد الماء، والحيوانات تحتاج إلى الماء والعشب، والإنسان يحتاج إليها جميعاً، فخلق بعدها، وهو سيدها وكلها مُسخرة له.

ولكن مع تبني قبائل إسرائيل للمفهوم الاحتكاري للتوحيد، فإن مفسري التوراة ومحرفيها أخذوا يضيقون من انتشار التوحيد بين الأمم وجعلوا من شعب إسرائيل وحده هو المعني بعناية "يهوا" إله إسرائيل، وجعلوا محور التاريخ الإنساني يدور حول تلك القبائل التوراتية، وإن هوية الشعب الإسرائيلي هوية توراتية تلمودية، فاليهود الذين تخلوا عن تعاليم الرب حاقت بهم لعناته وأصابتهم نكساته، ورغم انحراف اليهود عن تعاليم الأنبياء فقد ظلوا يعتبرون " يهوا" راعي الأمة الإسرائيلية، وأن التوراة والتلمود تدور حول الإنسان الإسرائيلي، وأن الوسيلة الوحيدة لارتقاء الجنس البشري تتمثل فى حكم الإسرائيليين للعالم، وأن الإسرائيليين عليهم أن يرحلوا ومعهم الكتاب المقدس إلى الأرض المقدسة لتكون أورشليم عاصمة العالم، وكل موطن يعيشون فيه هو مكان مؤقت للعودة الميمونة للتحضير لعودة المسيح الذي يحكم العالم من داخل أسوار مدينة الله فى بيت المقدس.

الإنسان في التوراة إذاً انحصر فى الإنسان الإسرائيلي دون غيره، ميزت الغربة هذا الإنسان وجعلته يعيش في أوهام العودة؛ ففي المزامير:(٤٦)

على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا عندما تذكرنا صهيون
على الضفاف فى وسطها علقنا أعوادنا
كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة
إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني

هكذا تميز الإنسان اليهودي المشتت الغريب، باشتياق العودة، وحب للوطن المفقود وكراهية للأرض التي يعيش فيها، وإلى جانب ذلك افتخار اليهود بأنهم شعب منفرد متميز خلق الله الكون من أجله، وبركة الله تجلت فيه وحده، وتوارثوا هذا الافتخار وتأصل فى نفوسهم وأثمر غروراً، فظنوا أنفسهم شعب الله المختار وأن بقية الخلق هم الأمم الذين لا يرقون إلى مرتبة إنسانية، يقول المفكر البريطاني أرنولد توينبي عن هذه العقلية الإسرائيلية: "إن النفسية التي تدمغ اليهود ي أساسها خطيئتهم القاتلة التي ارتكبوها فى حق أنفسهم، إذ كانوا فى سالف العصور الشعب الوحيد الذي بلغ

مكانة روحانية سامية بفضل اعتناقه وحدانية الله، و بلغوا مكانة روحية سامية دون بقية الشعوب، لكن اليهود بعد أن زودهم الله بهذه الحقيقة المطلقة الخالدة، وأودع فيهم فراسة روحانية لا تبارى، تركوا العنان لأنانيتهم فاستهواهم سراب دنيوي خادع، إذ توهموا أن السمو الروحي الذي بلغوه إنما خلعه الله عليهم وحدهم بموجب عقد أبدي يجعل منهم شعب الله المختار.(٤٧)

هذا الاعتقاد اليهودي في الاختيار الإلهي لهم انعكس على اعتقادهم في الألوهية ".. وأعطيتهم قلباً ليعرفوا أني أنا الرب فيكونوا لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً"،(٤٨) وإنه ليتبين أنهم ظلوا يضيقون أفق عبادة الله، ويحصرون مجال الحظوة عندهم جيلاً بعد جيل، فكان شعب الله المختار في مبدأ الأمر عاماً شاملاً لقوم إبراهيم، ثم أصبح بعد بضعة قرون محصوراً مقصوراً على قوم يعقوب ثم أصبح بعد ذلك محصوراً على قوم موسى وحدهم، ثم على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء ومن ذريته كان ينبغي أن يظهر المسيح المخلص لهم في أواخر الزمان.(٤٩)

لقد ظل اليهود على ولائهم لفكرة التفوق والعنصرية التي تتناقض تماماً مع الفطرة التى فطر الله الناس ـ كل الناس ـ عليها والتي لا تميز شعباً عن شعب أو فرداً عن فرد، وإذا علمنا أن اليهود تفرقوا في البلاد وتأثروا بثقافات هذه البلاد، علمنا أيضاً أن هذا التأثر لم يقض إطلاقاً على تلك العقيدة العنصرية؛ ولذلك فإن الدعوة الصهيونية لم تتخل عن قوميتها، وقادة الصهيونية الأوائل كهرتزل وحاييم وايزمان وبن جوريون كانوا علمانيين، ولكن ظل إخلاصهم للقومية اليهودية هو المحرك لجلب التأييد اليهودي، وغير اليهودي لإقامة دولة إسرائيل في فلسطين، يصف ليوبنسكر المفكر اليهودي فى "المسألة الملتهبة" اليهود بأنهم(٥٠) موتى أمام الحياة والأحياء، أجانب أمام المواطنين، غرباء في الأرض التي ولدوا فيها.

وهو يلخص هوية الإنسان الإسرائيلي من مضمون فهمه للتوراة، على أن هوية الإنسان غير اليهودى أو الجوييم هوية تأتي في مرتبة أدنى من هوية الإنسان اليهودي، فنفوس اليهود وحدها مخلوقة من نفس الله وعنصرهم من عنصره حتى لو ارتكبوا المعاصي وتخلوا عن تعاليم يهوا، فهم وحدهم أبناء الله الأطهار جوهراً، كما يعتقدون أن الله منحهم الصورة البشرية أصلاً تكريماً لهم، على حين أنه خلق غيرهم "الجوييم" من طينة شيطانية أو حيوانية، ولم يخلق الجوييم إلا لخدمة اليهود، ولم يمنحهم الصورة البشرية إلا محاكاة لليهود لكي يسهل التعامل بين الطائفتين إكراماً

لليهود، إذ بغير هذا التشابه الظاهري ـ مع اختلاف العنصرين ـ لا يمكن التفاهم بين طائفة السادة المختارين وطائفة العبيد المحتقرين.(٥١)

فالهوية في التوراة هوية يهودية عنصرية تفتخر بالعرق أكثر من الدين، وتنتصرللقوميه أكثر من الإله، هوية خادمة لليهودية المتفوقة العنصرية، لا مجال لها سوى إثبات التفوق الإسرائيلي وتفرد تلك القبائل اليعقوبية.

٣- هوية الانسان فى الأناجيل:

لم يتردد لقب الإنسان فى دين آخر مثل دين المسيح عليه السلام، وإضافة ابن إلى الإنسان تحدد شخصية عيسى فهو ابن الإنسان ودعوته للإنسان الخاطىء قبل المؤمن، في سفر أشعيا جاءت بشارة بالمسيح "روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق، وللمأسورين بالإطلاق، لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا، لأعزي كل النائحين".(٥٢)

فابن الإنسان كلمة لازمة للسيد المسيح تقديراً لشريعة الحب التي نادى بها، لأن الإنسان المقدّس هو محور الكون وسيده، وبشريعة الحب قضى على شريعة الكبرياء والرياء وعلم الناس أن الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب.(٥٣)

والمسيح نفسه موضوع الإنجيل، وهو ابن الإنسان. ولسنا بصدد الحديث عن نقض عقيدة التثليث وزعمها بأن المسيح ابن الله، ولكنا نركز على حقيقة أن هوية الإنسان عند الله في الإنجيل تتلخص في كون المسيح ابن الإنسان وليس فى كل الأناجيل عن المسيح أنه ابن الإنسان (لأنه ولد بغير أب)؛ ما يؤكد أن الإنسان الأب للمسيح هو الإنسان كما اصطفاه الله ليكون خليفة له في الأرض، أو في ملكوت الله. فالمسيح يقول: "الحق أقول لكم: إن من القيام هاهنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً فى ملكوته"،(٥٤) "فإنى أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان"(٥٥)، وقال لهم: ابن الإنسان سيد السبت أيضاً،(٥٦) "بل لتعلموا أن ابن الإنسان له سلطة غفران الذنوب"،(٥٧) لأن ابن الإنسان جاء ينشد وينقذ الضالين،(٥٨) يتضح أن ابن الإنسان جاء لكي يقيم ملكوت الله في الأرض وقد فهم المؤمنون الأوائل أو الحواريون هذا الملكوت على أنه الدار الآخره وفهمه اللاحقون كذلك، وإن كانت الإشارة إلى ملكوت الله في دعوة ابن الإنسان قد تبين أن الملكوت الأرضي في الحياة

كان له شأن كبير في دعوة المسيح على أساس شريعة الحب التي جاء بها، كان المسيح في بداية دعوته يكرز بين اليهود باعتباره أحد أنبيائهم، ولكن تحولت الدعوة من خاصة إلى عامة ومن أمة واحدة إلى سائرالأمم، بل إلى الإنسان فرداً كان أو عنواناً يشمل كل إنسان،(٥٩) والحقيقة أن الدعوة اليهودية عبر أطوارها كانت خالية من التسامح، خالية من الحب لغير اليهود، وإن تلك الدعوة اقتصرت على التفوق والتعصب، لذا كانت دعوة المسيح تكميلاً وتتويجاً وسداً للنقص في الشريعة اليهودية، لذلك قال المسيح: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس، حتى يكون الكل،(٦٠) ولكن اليهود رفضوا دعوته واعتقدوا أن المسيح المنتظر لا يكون إلا ملكاً يكمل مسيرة قبائل إسرائيل لإقامة مملكة يهوذا فى أورشليم، ولكن أورشليم صارت شبحاً هزيلاً في عصر المسيح، انتهك اليهود حرمتها ولم يتورعوا عن تدنيس الهيكل وتحويله إلى مغارة لصوص، فأيقن المسيح أن المدينة المقدسة التي أضحت مدينة رذيلة سوف تنهدم "فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤكِ بمترسة، ويحدقون بكِ ويحاصرونكِ من كل جهة، ويهدمونكِ وبيتكِ فيكِ، ولايتركون فيكِ حجراً على حجر لأنكِ لم تعرفي زمان افتقادك".(٦١)

تميزت دعوة المسيح بالحب والتسامح ولم تتميز بالجماعة_ الصالحة المتكاملة من بعده والتي كان عليها أن تكرز بملكوت الله الذي بشر به يسوع، وضاع الإنسان المسيحي بين كلمتي ابن الإنسان الحقيقية وابن الله الوهمية، فاختزن اللاوعي اضطراب المعاني الإلهية ذات الصلة بالوعي والوضعية التي اقتصرت على لاهوت المسيح، على أن المسيح نفسه كان يرمي إلى الارتقاء بالإنسان إلى نور الإيمان الكامل وصدق الاستمساك بروح الشريعة عن يقين لا بطقوسها.

ثم إن دعوة المسيح تحولت بعد عصر الحواريين إلى دعوة لا تمت إلى دين المسيح بصلة، فباسم المسيح أخذ الوثنيون يشيدون حضارتهم تحت شعار ابن الله الوحيد، ومع تقدم الزمن لم يعد هناك ارتباط بين دعوة النبي المتواضع الرقيق الخلق الذي قال: إن رسالته هى فقط التبشير بكلام الله والتكريز بين الأمم بالقادم باسم الرب والتنبؤ بمجيء آخر الرسل أو المعزي الذي سيشهد له، وبين ما تحمله الكنيسة من توجهات غير قائمة على دعوة المسيح.

فإذا كانت دعوة اليهود قائمة على فكرة شعب الله المختار، فإن الدعوة المسيحية الأولى كانت تهدم هذه الفكرة أو بمعنى عصري حديث، فإن الأناجيل الأربعة أول

وثائق معادية للسامية.

على ذلك، فإن هوية الإنسان المحصورة داخل البيت الإسرائيلي خرجت بمسيحيتها إلى نطاق أكثر عالمية وأكثر انتشاراً لا على حقيقة العقيدة، بل على حتمية شرعية حماية تلك العقيدة ونشرها بحد السيف، لا على أساس شريعة الحب، ولكن على شريعة الاستعلاء على الخلق تلك الشريعة وإن ألقت الأضواء على مرحلة متقدمة من تاريخ الإنسان تثبت أن ذلك المخلوق المقدس مرشح من جديد ومهيأ لاستقبال آخر الدعوات التى يجب أن تلهم الجماعة الصالحة المؤمنة بحقيقة موقفها الجديد والمسؤول عن الاستخلاف الحقيقي لله فى أرضه.

٤- دور القرآن الكريم فى صياغة الهوية:

يفرق القرآن الكريم بين هويتين: هوية إنسانية عالمية تشمل الجنس البشري كله، وهوية إيمانية تقتصرعلى المؤمنين بوحدانية الله والمتخلقين بخلق القرآن وبسيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

يخاطب القرآن الكريم كل البشر من منظور إنساني متميز بالعقل والإرادة والإدراك والفطرة الإيمانية التي فطر الله الناس عليها، **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾**(٦٢) **﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾** (٦٣) **﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً﴾**(٦٤) **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾**(٦٥) كما أنه يخاطب النبي الكريم بأنه رسول إلى البشر جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(٦٦) **﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾**(٦٧) **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾**(٦٨) وفاتحة القرآن التي يتلوها المؤمنون في صلواتهم تنص صراحة على أن الله رب العالمين **﴿الحمد لله رب العالمين﴾**.(٦٩)

ولكن الهوية الإنسانية فى القرآن الكريم قد ميزت هويات البشر بحسب انتماءاتهم العقائدية: هوية للوثنيين، وهوية للمشركين، وهوية لأصحاب الديانات السماوية، فالهوية العامة تشمل البشر جميعاً، أما الهوية الخاصة المميزة التي تندرج تحت المفهوم الذاتي هي تلك التي افترق الناس حولها، وهي التي ميز الله البشر من خلال تصنيفهم الإنساني، فهناك هوية وثنية كأقوام نوح وصالح وهود وقد أهلكهم الله بذنوبهم الشركية جراء عدم تصديقهم أنبياء الله، وهناك هوية شركية تظهر معالمها كثيراً في قريش قبل الإسلام، وهم أهل الجاهلية الذين أشركوا الأصنام مع الله وقالوا: إنما يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى**

الله زلفى﴾.[٧٠]

وهناك هوية كتابية تخص اليهود والنصارى، وقد ميز القرآن هؤلاء بأنهم أهل الكتاب، وهي كلمة لطيفة ومعبرة ومؤثرة، فآية النبي ومعجزته هي القرآن الكريم، والقرآن ما هو إلا كتاب معجز خالد، وإطلاق صفة أهل الكتاب على اليهود والنصارى صفة ملائمة لأقوام عرفوا الله وإن ضلوا الطريق في عبادته، وقد حاول القرآن الكريم كثيراً أن يعالج مجمل انحرافات الجنس البشري وأسباب الاختلاف التي كانوا عليها خصوصاً قضية الشرك بالله تعالى، وقد أرجع القرآن أصل الاختلافات إلى الهوى والتعصب للأسماء والشعارات بعيداً عن الالتزامات العلمية والسلوكية كقول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، أو قول النصارى: بأن المسيح ابن الله الوحيد.

والشيء الجدير بالذكر أن القرآن حرص على تفنيد مزاعم الوثنيين والكفار وأهل الكتاب ودعوتهم إلى الأصل الجامع المشترك للإنسان قبل الاختلاف، والقرآن ليس فيه آية واحدة تدعو إلى فرض العقيدة بقوة السيف؛ والجهاد للدفاع عن النفس والعرض والأرض والدفاع عن المؤمنين لكى يتمكنوا من عبادة الله ونشر دين الله بالمجادلة وبالتي هي أحسن.[٧١]

ويؤكد القرآن أن الإيمان شوق عميق من أشواق النفس الإنسانية ينساق إليها بباعث من فطرته[٧٢] وهذه الفطرة هى التي نقول عنها: بأنها هوية المؤمنين، فالقرآن يؤكد وحده مضمون دعوة الأنبياء المتعددين عند استعراض رسالاتهم إلى أقوامهم، كما الرسالة الإسلامية الصحيحة هي عدم التفريق بين الرسل والإيمان بهم جميعاً مع احترامهم والإنكارعلى من يفرق بين هؤلاء الرسل لأنهم جميعاً رسل الله تعالى،[٧٣] **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾**[٧٤] **﴿وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وأوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾**؛[٧٥] فالهوية الإيمانية للمؤمنين هي نفسها الفطرة أو الدفعة الإيمانية التي ملأ الله بها صدور المؤمنين الموحدين بالله، وليست الغاية الإيمانية وحدها القادرة على تحديد هوية المؤمنين، فهناك العقل والإرادة، بالإضافة إلى أن هوية المؤمن ليست بأي حال استعلائية، فهي عقيدة ملزمة العقل للمؤمنين أن يتحلوا بالأخلاق الفاضلة ويدافعوا عن المستضعفين بصرف النظر عن جنسيتهم وعقيدتهم، فهي حيوية رافضة للظلم داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، وقد أوضح الله سبحانه وتعالى في القرآن الأسس التي تقوم عليها هوية

المؤمنين منها الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بالأنبياء والرسل: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا**﴾.(٧٦)

الذات الإيمانية أرجعها الله جل شأنه إلى الأصل الإبراهيمي فهو أبو الأنبياء وهو الذي تجلت دعوته في كل الأمم، كذلك جاء التأكيد فى القرآن على أن إبراهيم كان مسلماً حنيفاً ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ﴿**وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾،(٧٧) وعلى هذا الأساس الإيماني دعا القرآن أهل الكتاب بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم من خلال التأكيد على بشارته في التوراة والإنجيل.

وقد حرص القرآن الكريم على ترك الاختيار للبشر في الإيمان والكفر، وأعلن عن ضرورة مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، والدعوة إلى الإيمان تنطلق أصلاً من واقع نقاشي حيوي يثبت أن الإسلام ما جاء لكي يوحد الجنس البشري؛ لأنه لم يبشر بوحدة الجنس البشري فى عقيدة واحدة، وقد شاء الله هذا التمايز والتعدد ليتحقق به التعاون بين البشر، والله طلب من المسلمين حماية هذا التنوع من خلال إطلاق حرية الاختيار وهذا يريح الضمير ويرجع الذات المؤمنة إلى فطرتها التي فطر الله الناس عليها، والإسلام شامل لمناهج الحياة جميعها ما يحمي المؤمن من ازدواج الشخصية، فالمؤمن غير حائر بين نوازع الجسم ونوازع الروح، ولا هو يتوتر بسبب عدم قبول كل الأمم دين الإسلام، فالقرآن يخاطب نبينا الكريم: ﴿**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر**﴾(٧٨) فالسيف آخر مراحل الدعوة، واستخدام السيف ليس لإجبار الناس على الدخول في الدين، بل لإزاحة المستبدين الظالمين عن الأمم المستعبدة والتي تمنع المستضعفين من الاطلاع على رسالة الله.

والقرآن أيضاً يخلص النفس المؤمنة من شوائب المعصية وأدران الشهوات وآفات الهوى لتصير نفساً روحانية خالصة مخلصة التوجه والهدف والوسيلة، ويلخص الإمام علي عليه السلام صفات المؤمنين التي تميز هويتهم عن غيرهم بقوله: "إنك ترى له (أي للمؤمن) قوة في دين، وحزماً في لين وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع... يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا

يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق".[٧٩] وحرص القرآن على الوحدة الإسلامية المؤمنة، ومعالجة أسباب الاختلاف بين المسلمين وإيجاد أرضية مشتركة بين كل المؤمنين لإيجادها من الاختلاف المسموح به في نطاق الإسلام والقائم أصلاً على حرية الاختيار.

٥- هوية الأمة المؤمنة من منظور القرآن الكريم:

بعد أن أقر القرآن الكريم الهوية الفردية للإنسان المؤمن، أكد على هوية الأمة المؤمنة، فهي أمة واحدة **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾**،[٨٠] تعبد الله بصفة عامة وتحمي المجتمع من منافقي الهوية، ومن مثيري الفتن، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتسعى ككل إلى إصلاح المجتمع المؤمن وتحصينه من الأطماع الخارجية الظالمة.

هوية الأمة تنطلق من قوانين التعايش الإجمالي السلمي بين أفرادها باختلاف مذاهبهم طالما أن كل الجماعة الصالحة تؤمن بالله الواحد وتصلي إلى قبلة واحدة، لا يكفِّر أحدٌ أحداً، ولا يلوم أحد أحداً على ما اعتقد أنه صواب طالما أنه يستقي أصول مذهبه من القرآن وسنة نبيه الأعظم، وكل مؤمن مسؤول أمام الله والمجتمع الصالح، هذه المسؤولية الثانية بين طوائف الأمة وطبقاتها تمليها شريعة متناسقة في عقائدها وتكاليفها، ولولا هذا التناسق لكان اضطلاع الأمة بمسؤولياتها العامة من النقائض التي لا تعقل في قسطاس العدل أو في منطق الواقع؛ لأنها تسوم الناس من جانب ما تبطله من الجانب الآخر،[٨١] ومن الأمة المؤمنة تنطلق كل دلائل الخير لتشيع التسامح والتراحم والتعاطف لتكون الجماعة المؤمنة نموذجاً للإنسان المثالي الذي يطبق القوانين التي وضعها الله لكي يكون الانسان مستحقاً لخلافة الله في أرضه.

على أن الأمة الإسلامية بهويتها الجماعية المميزة عليها أن تتفق على أصول الوحدة، والإيمان يقيناً بأن صلاح الأمة في وحدتها.

ولا يعيب الإسلام أن المسلمين اختلفوا ولم يتركوا هامشاً للاختلاف، ولا يعيب دين الله أن المسلمين ضيعوا الحق في ما بينهم وصار بأسهم بينهم شديداً، فالقرآن الكريم الكتاب الخالد الذي حفظه الله هو ما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الكتاب الداعي جميع الأمم لنبذ التعصب للآباء والعشيرة، ونبذ التعصب للأفكار الوضعية، وعلى الجميع اللجوء إلى الحكمة والموعظة الحسنة عند النقاش للوصول إلى الحد الأدنى للوحدة وتلك تحتاج لأبحاث أخرى اجتهادية كثيرة.

ويقيناً إن العالم بأسره عائلة واحدة خلقها الله من أب واحد لا يتميز فيها إنسان على إنسان سوى بالتقوى، التقوى التي تحدد الهوية القرآنية المؤمنة التي لا تتميز عن الآخرين بعرف أو لون أو جنس، والامتياز الوحيد هو المسؤولية الكاملة عن وعي شامل بخلافة الله، وهو امتياز مكلف للنفس المؤمنة، ولكنه تكليف يزيد المؤمن تشريفاً وارتقاء، والله سبحانه وتعالى يقول في قرآنه الكريم: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**.[٨٢]

فوراثة الأرض من قبل العباد الصالحين هي التي تحدد هوية المؤمن، وتحدد موطنه، هويته الصلاح والإيمان وموطنه كل بقاع الأرض.

الهوامش:

(١) ـ عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، ١٩٩٩، ص ١١٤.

(٢) ـ سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٣) ـ محمد جلال كشك، **خواطر مسلم حول الجهاد... الأقليات... الأناجيل**، منشورات العصر الحديث، القاهرة، مصر، ١٩٨٥، ص٢٠.

(٤) ـ سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٥) ـ عباس العقاد، **الله**، دار الهلال، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٧٢.

(٦) ـ السيد محمد باقر الحكيم، **الوحدة الإسلامية**، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، مصر،٢٠٠١، ص ٣٨ .

(٧) ـ م.ن، ص ٣٩.

(٨) ـ فهمي هويدي، **الدين للناس والعكس ليس صحيحاً**، بحث منشور في مجلة العربي الكويتية، العدد ٢٣٦، يوليو (تموز)، ص ٣٧.

(٩) ـ سورة البقرة: الآية ٣٤.

(١٠) ـ سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(١١) ـ سورة التغابن: الآية ٣.

(١٢) ـ بو عبد الله غلام الله، **دور العقل في الخطاب الديني**، بحث منشور ضمن إصدار وزارة الأوقاف بمصر (ضمن مجموعة باحثين في مؤتمر التجديد في الفكر الإسلامي)، ٢٠٠٢، ص ٨٣١.

(١٣) ـ سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(١٤) ـ سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(١٥) ـ سورة النمل: الآية ٦٠.

(١٦) ـ سورة آل عمران: الآية ١٩٠.

(١٧) ـ سورة الرعد: الآية ١٩.

(١٨) ـ سورة النمل: الآية ٦٤.

(١٩) ـ د. عبد المعطي محمد بيومي، **دور العقل في الخطاب الديني**، بحث منشور ضمن إصدار وزارة الأوقاف بمصر (ضمن مجموعة باحثين في مؤتمر التجديد في الفكر الإسلامي)، ٢٠٠٢ ، ص ٧٨٧.

(٢٠) ـ سورة النمل: الآية ٦٤.

(٢١) ـ سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٢٢) ـ سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢٣) ـ سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢٤) ـ **خواطر مسلم**، مرجع سابق الذكر، ص ٢١.

(٢٥) ـ م.ن.

(٢٦) ـ سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢٧) ـ سورة يونس: الآية ٩٩.

(٢٨) ـ سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٢٩) ـ سورة البقرة: الآية ٣١.

(٣٠) ـ سورة الرعد: الآية ٨.

(٣١) ـ سورة الحديد: الآية ٢٥.
(٣٢) ـ سورة النحل: الآية ٥.
(٣٣) ـ سورة يس: الآية ٨٠.
(٣٤) ـ سورة النحل: الآية ١٢.
(٣٥) ـ سورة النحل: الآية ١٨.
(٣٦) ـ سورة الرعد: الآية ٣.
(٣٧) ـ سورة الأنعام: الآية ٩٠.
(٣٨) ـ سورة الرعد: الآية ١١.
(٣٩) ـ سورة فاطر: الآية ٣.
(٤٠) ـ سورة القصص: الآية ١٠.
(٤١) ـ سفر التكوين ١٨/٢٢.
(٤٢) ـ سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٤٣) ـ سفر التكوين ٩/١٧.
(٤٤) ـ تامر مصطفى، **بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار**، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، بيروت،١٩٩٨، ص ٤٦ .
(٤٥) ـ د. عبد الجليل شلبي، **اليهود واليهودية**، كتاب اليوم، القاهرة، ١٩٩٧ ، ص ١٦٢.
(٤٦) ـ المزامير: ١٣٧.
(٤٧) ـ نقلاً عن كتاب: "**محمد في التوراة والإنجيل والقرآن**" تأليف: إبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي، القاهرة بدون تاريخ، ص ٥٣.
(٤٨) ـ تكوين ١٠/١٨.
(٤٩) ـ **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، مرجع سابق، ص ٣٩.
(٥٠) ـ اليهود واليهودية، مرجع سابق، ص ٦٩١.
(٥١) ـ محمد خليفة التونسي، **بروتوكولات حكماء صهيون**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص ٥١.
(٥٢) ـ سفر أشعيا ١/٦١ -٣.
(٥٣) ـ عباس محمود العقاد، **حياة المسيح**، كتاب اليوم، مصر، ١٩٥٣، ص ١٣٣.
(٥٤) ـ إنجيل متى ١٨/١٦.
(٥٥) ـ متى ٢٣/١٠.
(٥٦) ـ إنجيل لوقا ١٦/١٦.
(٥٧) ـ لوقا، ٢٤/٥.
(٥٨) ـ لوقا ٨/١٩- ١٠.
(٥٩) ـ **حياة المسيح**، مرجع سابق، ص ١٦٠.
(٦٠) ـ متى ٥- ١٧- ١٩.
(٦١) ـ لوقا ٤٢/١٩- ٤٤.
(٦٢) ـ سورة الانفطا: الآية ٦.
(٦٣) ـ سورة الانشقاق: الآية ٦.
(٦٤) ـ سورة البقرة: الآية ١٦٨.
(٦٥) ـ سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٦٦) ـ سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٦٧) ـ سورة الفرقان: الآية ١.

(٦٨) ـ سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٦٩) ـ سورة الفاتحة: الآية ١.

(٧٠) ـ سورة الزمر: الآية ٣.

(٧١) ـ الوحدة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٧٢) ـ حقائق الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٧.

(٧٣) ـ الوحدة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٥٧- ٥٨.

(٧٤) ـ سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

(٧٥) ـ سورة البقرة: الآية ٢٣٦.

(٧٦) ـ سورة الشورى: الآية ١٣.

(٧٧) ـ سورة آل عمران: الآية ٦٧.

(٧٨) ـ سورة الغاشية: الآية: ٢٢/٢١.

(٧٩) ـ نهج البلاغة، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص ١٦٤.

(٨٠) ـ سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

(٨١) ـ حقائق الإسلام، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٨٢) ـ سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.